

تفكيك الخرافة وتنمية التفكير النقدي في قصص الأطفال: دراسة في "أضغاث أحلام" و"ظل خلف
النافذة" لفاطح عياد

Deconstructing Myth and Fostering Critical Thinking in Children's Stories: A
Study of "Odghāth Ahlām" and "A Shadow Behind the Window" by Fatih

'Ayad

* زهية عيوني

zahia aiouni

جامعة 20 أوت 1955-سكيكدة (الجزائر)

University 20August 1955 – Skikda (Algeria)

zaho_aiouni@yahoo.com

تاريخ النشر: 2026/03/02

تاريخ القبول: 2026/01/09

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

مَلِكُ حَصْرٍ لِبَحْتِ

تُشكّل الخرافة جزءًا من الموروث الشعبي الذي يتسرّب إلى وعي الطفل عبر رموز سردية ذات سلطة، بينما يمثل التفكير النقدي شرطًا أساسيًا لتكوين عقل متساؤل ومستقل. يهدف هذا المقال إلى دراسة كيفية تفكيك البنية الخرافية في قصص الأطفال وإعادة توجيهها نحو ترسيخ التفكير النقدي، من خلال تحليل قصتي "أضغاث أحلام" و"ظل خلف النافذة" لفاطح عياد. تنطلق الدراسة من إشكالية جوهرها: إلى أي مدى يستطيع أدب الطفل أن يتحول من حامل للخرافة إلى أداة لتشكيل وعي نقدي؟ وقد خلصت إلى أن القصة، متى كُنبت برؤية تربوية-سيميائية، قادرة على تجاوز وظيفتها الترفيهية لتصبح مجالًا لتعدد الدلالات وتحرير الخيال من التلقين. وتبرز النتائج أن التحول من سلطة الخرافة إلى سلطة التساؤل يمثل خطوة أساسية في بناء التربية النقدية المبكرة. الكلمات المفتاحية: خرافة، تفكير نقدي، سيميائيات القصة، أدب الطفل، تربية نقدية.

Abstract :

Myth constitutes a significant part of the popular heritage that permeates the child's consciousness through symbolic narratives of authority, whereas critical thinking is a fundamental condition for shaping an inquisitive and independent mind.

* - زهية عيوني: zaho_aiouni@yahoo.com

This article aims to examine how the mythical structure in children's stories can be deconstructed and redirected toward fostering critical thinking, through an analysis of Fathi Ayyad's Adghath Ahlam and Zill Khalfa Al-Nafitha.

The study is driven by a central question: to what extent can children's literature move from being a vehicle of myth to becoming a tool for building critical awareness?

The findings reveal that children's stories, when written from a semiotic-pedagogical perspective, are able to transcend their entertainment function and serve as a space for multiplicity of meanings and for liberating imagination from dogmatic authority. The results also highlight that the shift from the authority of myth to the authority of questioning represents a crucial step in fostering early critical pedagogy.

Keywords: Myth, Critical Thinking, Semiotics of Narrative, Children's Literature, Critical Pedagogy.



المقدمة:

يخطى أدب الأطفال بأهمية بالغة في تكوين شخصية الطفل وتوجيهه نحو التفاعل الإيجابي مع محيطه، وذلك بفضل ما يتيح من متعة سردية تخاطب خياله وتلبي حاجاته النفسية والمعرفية. غير أن كثيراً من هذا الأدب، لاسيما في بيئتنا العربية، ما يزال يستند إلى موروث شعبي ممتلئ بالخرافات والمخاوف الرمزية، تُبنى من خلالها علاقة الطفل بالعالم والآخر والقدر. غير أنه من الضروري التمييز بين الخرافة والأسطورة والحكاية الشعبية، إذ تختلف وظائفها ومقاصدها التربوية والجمالية، فلا يصح وضعها جميعاً في خانة واحدة. وهو ما يطرح تساؤلاً جوهرياً: هل تُعزز هذه القصص التفكير النقدي أم تُرسخ الانفعال الغيبي والخضوع للخرافة؟

في هذا السياق، تأتي قصتنا "أضغاث أحلام" و"ظل خلف النافذة" لتقدّما نموذجين سرديين يُعيدان تشكيل العلاقة بين الخرافة والعقل، وذلك من خلال مسار تحليلي يتدرج من الرمز الغامض إلى المعنى المتعقل، ومن الخوف إلى الفهم، ومن الانفعال إلى التفكير. ولا يمكن القول إن الخرافة بالضرورة تُعيق التفكير النقدي لدى الطفل؛ بل قد تُتيح له فرصة لاستخدام عقله في تفسير الظواهر وتجاوز الخوف نحو التساؤل والفهم. ومن ثمّ يمكن أن تتحوّل الخرافة من أداة للتخويف إلى وسيلة للتفكير الجدي ومعالجة الأمور بوعي.

تجدد الإشارة إلى أنّ القاص فاتح عيتاد، وهو أديب جزائري يُعدّ من أبرز الأصوات السردية التي وتجت إنتاجها نحو فئة اليافعين، وهي فئة عمرية تمتدّ تقريباً من الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة سنة، وتشكل مؤشراً جوهرياً في تحليل بنية القصة ولغتها ورسائلها التربوية. ومن بين أعماله مجموعة "رسالة إنسان" التي تتضمن عدداً من القصص التربوية الهادفة،

وقد اخترنا منها في هذه الدراسة قصتي "أضغاث أحلام" و"ظل خلف النافذة" بوصفها نموذجين دالّين على توظيف الخرافة في تمييز التفكير النقدي لدى الطفل.

وفي ضوء ما سبق، تهدف هذه الدراسة إلى مقارنة الخرافة في أدب الأطفال من زاوية سيميائية تربوية، تستجلي الكيفية التي تُستثمر بها الرموز في تشكيل وعي الطفل، سواء لترسيخ الخوف والانفعال أو لبناء التفكير النقدي والتحرر. وتحقيقاً لهذا الهدف، تنقسم الدراسة إلى أربعة محاور رئيسية: يُعنى أولها بتفكيك المفاهيم الأساسية (الخرافة، التفكير النقدي، أدب الطفل)، فيما يركّز المحور الثاني على تحليل العلاقة بين الخرافة والتفكير النقدي في ضوء المقاربة السيميائية. أما المحور الثالث، فينتقل إلى التطبيق عبر تحليل سيميائي لقصتي "أضغاث أحلام" و"ظل خلف النافذة"، قبل أن يُختم البحث بمحور رابع يُفترّح فيه تصوّر تربوي لتفعيل التفكير النقدي من خلال القصة.

أولاً- المبحث المفاهيمي:

يُعَدُّ التفكير المفاهيمي ضرورة إبستمولوجية وأكاديمية لأي مقارنة تحليلية تروم دراسة الظواهر الفكرية والسردية في نصوص موجهة للأطفال، خاصة عندما يتعلق الأمر بثنائية "الخرافة والتفكير النقدي" في إطار من التحليل السيميائي التربوي. ومن هنا، ينبغي الوقوف عند ثلاثة مفاهيم محورية هي: الخرافة، التفكير النقدي، وأدب الطفل.

1-الخرافة: من سلطة التخويف إلى سلطة التساؤل

تقوم الخرافة أساساً على تشخيص القوى وجعلها في صورة شخصيات فاعلة، إلهية أو بشرية أو حيوانية، إذ لا تُبنى عادةً حول قوى مجردة أو مفاهيم لا شخصية كالخير عند أفلاطون. يقول الباحث روريت إيه سيجال أنّ الخرافة "تدور حول بشر مثل ما تدور حول الإله"¹ ويتابع قائلاً: "ولن أشدد هنا إلا على ضرورة أن تكون شخصيات رئيسية في الخرافات شخصيات إلهية أو بشرية أو حيوانية، ولن استثنى إلا القوى اللاشخصية، مثل الخير عند أفلاطون..."² وهو ما جعل تايلور وسواه من المنظرين يشددون على مركزية البعد الشخصي في الخرافات، لأنه يمنحها طابعها السردية والرمزي ويجعلها قابلة للتلقي والحفظ في الذاكرة الشعبية.

وتُعَدُّ الخرافة من المكونات العميقة في الثقافة الإنسانية، فهي ليست مجرد سرديات متوارثة، بل تحمل في طياتها بقايا نفسية ورمزية ضاربة في الجذور. وقد أشار بعض التارسين إلى أنّ "الإنسان الحديث في الحقيقة مزيج عجيب من ميزات مكتسبة على مدى عصور طويلة من تطوره العقلي، وهذا المزيج هو نحن ورموزنا"³ وهو ما يعبر عن بقاء أثر الخرافة في بنية الوعي الحديث.

من المهم في هذا السياق أن نلاحظ أنّ توظيف الخرافة في قصص الأطفال، وخصوصاً في قصص اليافعين، يختلف من حيث الدرجة والمقصد؛ فهي قد تكون وسيلة للتخويف والانفعال أو أداة لإثارة التساؤل والتفكير.

ولأن قصص "أضغاث أحلام" و"ظل خلف النافذة" موجهتان لفئة اليافعين (من 12 إلى 18 سنة تقريباً)، فإنّ حضور الخرافة فيها يتخذ بعداً تربوياً رمزياً يسعى إلى تحويل الخوف إلى وعي.

إنّ هذا القول يوضّح أن الخرافة ليست شيئاً غريباً عن الوعي الحديث، بل هي امتداد لعناصر رمزية متوارثة، بعضها اندثر وبعضها ظلّ فاعلاً في السلوكيات والمعتقدات. وهنا يبرز دور اللاوعي الجمعي الذي يختزن تلك البقايا الأسطورية، كما يتجلى في قول آخر: "ونعني باللاوعي الجمعي هنا ذلك الجانب من النفس أو العقل الذي يحفظ الرموز"⁴.

وبناء على ذلك، فإن التحليل السيميائي التربوي للخرافة لا ينصرف إلى رصد رموزها فحسب، بل إلى تفكيك وظائفها داخل النص الطفولي، وتمييز ما إذا كانت تُعيد إنتاج سلطة الخوف أو تُحرّك سلطة التساؤل والتفكير. وعليه، فإن الخرافة في قصص الأطفال لا يمكن النظر إليها باعتبارها موروثاً عابراً أو مجرد وسيلة للترفيه، بل هي انعكاس لرموز متجذّرة في اللاوعي الجمعي، مما يفرض على الباحث وال كاتب ضرورة تفكيكها، وإعادة توجيهها نحو ترسيخ التفكير النقدي، حتى لا تتحوّل إلى آلية لإعادة إنتاج الخوف والجمود الفكري.

2- التفكير النقدي: إشكالية التعريف وتعدد المقاربات

يعدّ التفكير النقدي من أكثر المفاهيم تداولاً في الفلسفة والتربية وعلم النفس، غير أنّ تحديد تعريف جامع مانع له ظلّ أمراً عسيراً، فقد تنوّعت المقاربات باختلاف الخلفيات المعرفية والغايات التربوية، فبعض الباحثين شدّد على جانبه التأملي، وآخرون أبرزوا بعده المنهجي أو المهاري، فيما ركّز فريق ثالث على الحاصل والاتجاهات التي يتحلّى بها المفكّر النقدي.

وهذا التعدّد لا يعكس تبايناً جذرياً بقدر ما يُظهر غنى المفهوم واتساع آفاقه، إذ إنّ كل تعريف يضيء زاوية بعينها من المشروع النقدي العام.

وفي هذا السياق، نستعرض بعض أبرز التعريفات التي قدّمها رواد الفكر والتربية:

يقول جون ديوي معرّفًا التفكير النقدي: "إمعان النظر الدؤوب والمستمر والدقيق لأي معتقد أو شكل مفترض من أشكال المعرفة في ضوء المسوّغات التي تدعمه والاستنتاجات الإضافية التي يفرضي إليها"⁵.

ويعرّفه إدوارد جيلسر بقوله: "الزعة إلى التفكير المتعمق في المشكلات والموضوعات التي تقع في نطاق تجارب الفرد، ومعرفة طرق الاستقصاء المنطقي والاستنتاج، التحلّي بقدر من المهارة في تطبيق هذه الطرق"⁶.

وحسب تقرير ديلفي فالتفكير النقدي يُعرّف على أنّه: "حكم هادف وذاتي التنظيم يفرضي إلى إجراء عمليات التأويل والتحليل والتقييم والاستدلال والشرح للاعتبارات الإثباتية أو المفهومية أو المنهجية أو القياسية أو السياقية التي يُبنى ذلك الحكم على أساسها"⁷.

وعلى الرغم من تنوع هذه التعريفات وتقديم بعضها لعناصر معينة على حساب أخرى، فإنها تشترك جميعاً في إبراز الطبيعة الثلاثية للتفكير النقدي، المتمثلة في المعرفة والمهارات والحاصل. ومن ثمّ يمكن القول إن الاختلاف ليس في جوهر المفهوم، بل في زوايا النظر إليه ومستويات التركيز.

إنّ النقاش حول ما يندرج تحت مظلة التفكير النقدي وما يُستبعد منها ليس سوى محاولة لتحديد أولويات هذا المشروع التربوي والمعرفي. لذلك، فإن توسيع دائرة التفكير النقدي لتشمل موضوعات فرعية مثل الدراية المعلوماتية أو البلاغة أو الإبداع لا يضعف المفهوم، بل يثريه ويجعله أكثر قدرة على الاستجابة لمتطلبات الواقع المتغير.

ولا يقتصر التفكير النقدي على التعريفات النظرية التي قدّمها الفلاسفة والتربويون، بل نجد من يؤكّد على جانبه العملي التطبيقي، باعتباره منهجاً في معالجة القضايا وإدراك الحقائق، أي "أنّ علاج المسألة بأسلوب عقلائي نقدي، وأنّ نركز على الحجج التي تصل بك إلى حقيقة المسألة بالتدرّج، وهذا سوف يمكّن العالم والتاس من إدراكها بشكل أسهل والتعامل معها"⁸.

يُبرز هذا القول البعد العملي للتفكير النقدي، فهو لا يقدم تعريفاً اصطلاحياً مباشراً بقدر ما يصف آليته في معالجة المسائل. إذ يدعو إلى مقارنة المشكلات بأسلوب عقلائي نقدي يقوم على ترتيب الحجج وتنظيمها تدريجياً بما يقود إلى إدراك الحقيقة بشكل أوضح. وهذه السمة تمثل جوهر التفكير النقدي من حيث اعتماده على البرهنة والتمحيص بدل الانفعال أو التسليم المسبق.

وعند ربط هذا البعد بمفهوم التحليل السيميائي التربوي، يتضح أن التفكير النقدي لا يقتصر على النشاط الذهني الفردي، بل يمتد إلى تحليل العلامات والدلالات في النصوص الموجهة للأطفال، مما يسهم في ترسيخ القراءة الواعية والتفسير التأويلي لديهم.

وتجلى أهمية هذا الربط حين نتعامل مع الخرافة في أدب الأطفال، لأن التفكير النقدي يُحوّلها من أداة لتلقين الخوف إلى وسيلة لتربية التساؤل وفهم الرموز، وبذلك يصبح التحليل السيميائي التربوي وسيلة لترسيخ الوعي النقدي لا مجرد تأويل نظري للنص.

وعلى تنوع زوايا النظر، يبقى جوهر التفكير النقدي واحداً: تنمية القدرة على مساءلة المؤلف، وتحليل القضايا بمنهجية رصينة، وصولاً إلى تكوين أفراد مستقلين وفاعلين، قادرين على التعامل الواعي مع تحديات الواقع.

3-أدب الطفل: بين التثمين والتربية النقدية

لقد تطوّر هذا النوع الأدبي تدريجياً، إذ بدأ بوصفه وسيلة لتلقين القيم الأخلاقية، ثم تحوّل - في النماذج الحديثة - إلى أداة لترسيخ التفكير النقدي، عبر شخصيات وأحداث تُصمّم لتحفّز الطفل على التساؤل والتفاعل. ففي القصة النقدية الحديثة، لم يعد "البطل الخارق" هو مركز الثقل، بل "الطفل المفكّر"، الذي يواجه الرموز، ويشكك في الأقوال، ويعيد بناء المعنى.

وتتأسس قيمة هذا التوجه على فناعة مفادها أن "الطفل هو الثروة الأساسية للأمة"⁹، ومن ثم فإنّ تنمية قدراته الخلاقة والمبدعة تصبح الهدف الأسمى لأي مشروع تثقيفي يسعى إلى بناء مجتمع متقدم. وقد أكدّ بعض الباحثين أنّ المبدعين هم الركيزة الأساسية لأي نهضة فكرية وثقافية، فهم ينتجون المعرفة ويطوّعونها للتطبيق، ويسهمون في رفاهية المجتمع وتقدمه.

ومن هنا، يصبح أدب الطفل النقدي مجالاً يربط بين التربية والإبداع، حيث يدفع الطفل إلى تجاوز التلقين والانخراط في فعل الاكتشاف والتأمل. وهو ما يتناغم مع الرؤية التي ترى في الإبداع دافعاً أساساً للمعرفة، إذ يؤكد بعض الباحثين قائلاً: "والدافع للإنجاز الذي يدفع إلى المخاطرة العلمية المحسوبة من أجل الاكتشاف والتحرر من الأساليب المعتادة للتفكير، والميل إلى البحث في الاتجاهات الجديدة، والإقدام نحو ما هو غير يقيني، وتفحص البيئة بحثاً عن الخبرات الجديدة، والمشاركة في الفحص والاستكشاف من أجل مزيد من المعرفة لنفسه وبيئته."¹⁰

ومن زاوية سيميائية-تربوية، يمكن النظر إلى أدب الطفل النقدي بوصفه فضاءً لإعادة تشكيل العلاقة بين العلامة والمعنى، وبين القارئ والنص، بحيث يتعلّم الطفل قراءة الرموز وتأويلها، لا التسليم بها. فالعلامة في النص الطفولي ليست مجرد عنصر لغوي أو بصري، بل وسيط تربوي يمرّ القيم ويشكّل الوعي بطريقة غير مباشرة.

ولهذا، فإنّ التحليل السيميائي التربوي يُمكن الباحث من فهم كيف تتحوّل البنية الرمزية للنص إلى أداة تعليمية وتشكيلية للذهن النقدي لدى الطفل.

وبذلك، يتقاطع أدب الطفل النقدي مع المنهج التربوي النقدي في الغاية والوظيفة؛ فكلاهما يسعى إلى تحرير المتعلّم من سلطة المسلّمات، وتدريبه على إعادة بناء المعنى من خلال المشاركة الفاعلة في إنتاج الدلالة. ومن ثمّ، لا تُقاس قيمة القصة الموجهة للأطفال بمدى ما تقدّمه من تسلية، بل بقدرتها على تحفيز التساؤل، وتمييز الحسّ النقدي، وبناء الاستقلال الفكري لدى القارئ الناشئ.

ثانياً- المفاهيم النظرية بين الخرافة والتفكير النقدي في ضوء المقاربة السيميائية

تعدّ الخرافة من أقدم أشكال التفسير الرمزي الشعبي التي ظهرت في الوعي الجمعي للإنسان، إذ حاول من خلالها فهم الظواهر المهمة أو غير القابلة للتفسير العلمي في زمنها، وذلك بإحالتها إلى قوى خفية أو كائنات خارقة، غالباً ما ترتبط بالموروث الثقافي والأسطوري للمجتمع. وضمن هذا السياق، لا تُمثّل الخرافة مجرد بناء تخييلي، بل تؤدي وظيفة أيديولوجية تبريرية، تُسهّم في إعادة إنتاج أنماط التمثيل الجمعي وتثبيت بنية السلطة المعرفية، خاصة حين تُقدّم للطفل بوصفها حقيقة مُطلقة صادرة عن سلطة رمزية قريبة، كالأم أو الجدّة، فهو بحكم طبيعته "يطلب من الأم أو الجدّة الحكايات التي تناسبه ويشغف لسامعها"¹¹، مصغيّاً متقبلاً لكلّ ما يُحكى له دون أي تشكيك، "ومن الملاحظ أنّ الطفل يغوص في أعماقها ويستنبط ما يدور بنفسه، فالتأمل الباطني أو الاستبطان هو تأمل الفرد إلى ما يدور حوله من عمليات شعورية، والطريقة هي أن يطلب من الشخص ما يختم داخله من أفكار ومشاعر دون أن يعرض له بالتحليل والتفسير"¹²

لكن حين تُقدّم الخرافة في شكلها المغلق هذا، فإنها تتحوّل إلى أداة لضبط السلوك وإخضاع الوعي، وهو ما يُمثّل خطراً تربوياً دقيقاً، لأنها تلغي من الطفل أهم ملكة فكرية يجب أن تُثمي، وهي التساؤل، والتفكير النقدي. فالخرافة، في صيغتها التقليدية، تُقدّم تفسيراً نهائياً لأي ظاهرة (الحلم، الظلام، الغول، المرض...)، وتجعل من الطفل مستهلكاً للمعنى لا مشاركاً في إنتاجه. ولذلك، يرى بعض التربويين أن "الطفل في حاجة إلى تقدير ذاته واحترامها عن طريق اعتراف الآخرين بكفاءاته وقدراته واحترام آرائه وأفكاره، فهو يسعى دائماً إلى تبوّء المكانة المرموقة وأخذ الاعتبار بوجوده من خلال إنجازاته وأعماله، النمو السوي للذات يشكّل حجر الزاوية للشخصية السوية وإشباع حاجات الطفل النفسية يعزّز الذات ويساعد على نمو سليم لها"¹³.

وفي مقابل هذا النمط من التلقين، يظهر التفكير النقدي بوصفه ضرورة بيداغوجية لتكوين وعي تحليلي عند الطفل. ويُقصد به تلك القدرة على التمييز بين الرأي والمعطى، واختبار الفرضيات، والربط بين المقدمات والنتائج، والوعي بالتحيزات والسلطات الرمزية. فالتفكير النقدي لا يتناقض مع الخيال، لكنه يشتغل على تقنيته وتنقيته من الدلالات الجاهزة. ومن هنا، فإن قصص الأطفال ينبغي أن لا تُقدّم كرسائل وعظية، بل كفضاءات مفتوحة للسؤال، قادرة على خلق توتر دلالي يسمح بإنتاج المعنى لا استهلاكه.

وتُعدّ المقاربة السيميائية من أنجع المداخل لتحليل الخرافة بوصفها خطابًا له منطق دلالي خاص. فالسيميائيات، كما بلورها غريماش، تُعنى "بكل مجالات الفعل الإنساني بدءًا بالانفعالات البسيطة ومرورًا بالطقوس الاجتماعية وانتهاءً بالأنساء الأيديولوجية الكبرى"¹⁴

عند مقارنة الخرافة من زاوية سيميائية، يظهر وجهها السلطوي بوضوح، فهي تقوم على بناء فضاءات مغلقة وشخصيات نمطية تتخذ من التخويف وسيلة للسيطرة، مثل الغول والعفريت والساحرة. كما تُنشئ نظامًا دلاليًا أحادي البعد يوجه المتلقي نحو معنى محدد دون فسحة للاختلاف أو التأويل المتعدد. ومن هذا المنطلق، تتيح القراءة السيميائية إمكانية تفكيك هذه البنى وكشف آليات اشتغالها، مما يفتح النصوص على إمكانات جديدة للفهم ويحزّر الطفل من هيمنة المعنى الجاهز. وبهذا المعنى، تتحول السيميائيات إلى مدخل لترسيخ التفكير النقدي، بوصفه وعياً بالكيفية التي يُصاغ بها المعنى وينتج، لا مجرد رفض سلبي للمحتوى المروي.

إنّ الجمع بين المقاربة السيميائية والمنهج التربوي النقدي يتيح لنا بناء مشروع بديل في أدب الأطفال، يجعل من القصة تمرينًا على الحرية الفكرية، بدلًا من أن تكون تمجيدًا للطاعة والتسليم. وبهذا، نربط التحليل السيميائي بتحرير وعي الطفل، وهو هدف لا يقل أهمية عن الأهداف الجمالية أو الأخلاقية التي يحملها أدب الطفولة.

ثالثًا- التحليل السيميائي للقصة:

بعد هذا التأسيس المفاهيمي، يصبح من الضروري الانتقال إلى الجانب التطبيقي عبر تحليل نماذج قصصية محددة، قصد اختبار مدى حضور الخرافة وآليات تفكيكها، ورصد الكيفية التي يمكن من خلالها للتردد أن يفتح أفق التفكير النقدي لدى الطفل.

1- التحليل السيميائي لقصة "أضغاث أحلام":

تعالج قصة أضغاث أحلام ظاهرة التأويل الخرافي وأثره النفسي والتربوي على الطفل، من خلال بنية سردية بسيطة ومكثفة، تتأسس على رؤية الطفلة صفاء لنفسها وهي تحلق في السماء، ثم انتقالها عبر سلسلة من التفسيرات المتناقضة التي تعكس اختلاف المرجعيات التأويلية لدى الشخصيات المحيطة بها. تدشن القصة فضاءً دلاليًا مشحونًا بالتوتر، قوامه التفاعل بين "علامة الحلم" بوصفها دالًا مركزيًا، وسلسلة المدلولات التي تُحمّل بها، ما يخلق بنية تأويلية تكشف عن آليات إنتاج المعنى داخل الوعي الشعبي من جهة، وممكنات تقويضه من جهة أخرى.

تنطلق القصة من موقف انفعالي؛ فالبطلة تستفيق مذعورة بعد حلم ترى فيه نفسها "تحلق عاليًا"، وهو ما يُصاغ سرديًا بلغة توحى باللايقين والذهول. يُنقل الحلم إلى الأم، ومنها إلى العمة راجحة التي تمثل هنا سلطة رمزية تقليدية، فتُسارع إلى تأويل الرؤيا قائلة: "إذا رأى الإنسان في منامه أنه يطير، فهذا يدل على أنّ قرب الأجل قد حان"¹⁵. هذا التأويل ليس مجرد رأي بل ينتمي إلى منظومة تفسيرية كاملة، تنبض على معجم الخرافة، حيث يكون الطيران دالًا على الموت، أي أنّ العلامة تُغلق على دلالة واحدة مرعبة، تُفرض بساطة القول القطعي والحاسم.

تمارس العمة دورًا تأويليًا سلطويًا، يُحيل الرؤيا إلى مصير محتوم لا يقبل النقاش. وهنا تكمن الوظيفة السيميائية الأولى في القصة: تعيين الخرافة بوصفها خطابًا مغلقًا يُقصي التأويلات البديلة، ويكرس الخوف كأداة ضبط. وبهذا المعنى،

يكون تفسير العمة مغلقاً من حيث رمزيتها لانغلاق الدلالة والنتيجة المباشرة لذلك هي تحوّل الحلم من ظاهرة نفسية إلى "نذير شؤم"، ما يؤدي إلى تدهور نفسي تدريجي عند صفاء، ينعكس في انزوائها ومرضاها.

غير أن القصة لا تتوقف عند هذا التفسير الأحادي، بل تُدخل لاحقاً شخصية الإمام الذي يقوم بدور رمزي مناقض للعمة. فبينما تعلن العمة التأويل النهائي، يقدم الإمام بديلاً عقلياً هادئاً حين يصف الحلم بأنه أضغاث أحلام، أي لا دلالة حتمية له. هذا الانتقال يُعدّ مفصلياً في بنية القصة، لأنه يحزّر العلامة من قدرتها، ويُعيد فتح أفق الدلالة. فالإمام لا ينفي فقط تفسير العمة، بل يُعيد ترتيب العلاقة بين الحلم ومعناه، مستنداً إلى مقارنة نفسية لا أسطورية.

سيميائياً، تقوم القصة على ثنائية التأويل: بين خطاب شعبي تقليدي مؤسس على الخوف والإجلال، وخطاب عقلائي مؤسس على الشك وإعادة النظر. بين العمة والإمام، تنفتح أمام القارئ - وخاصة الطفل - مساحة للتفكير النقدي، حيث لا يُقدّم المعنى كحقيقة نهائية، بل كاحتمال ينبغي التحقق منه. وهنا تنقلب وظيفة الحلم من أداة ترهيب إلى فرصة تعلم.

البنية السردية تُبرز هذا التحول من الاتفعال إلى العقل، ومن الطاعة إلى التساؤل. فصفاء تنتقل من التوتر والخوف إلى الطمأنينة والانشراح، ليس فقط بفعل كلام الإمام، بل لأنّ القصة تقترح عليها - وعلى القارئ معها - نموذجاً آخر في الفهم، يقوم على تعليق الحكم، ومقارنة وجهات النظر، ورفض سلطة التأويل الأحادي. وهذه كلها خصائص جوهرية من خصائص التفكير النقدي.

أما من حيث البناء السيميائي، فإن القصة تستثمر نوعين من العلامات:

- علامات لغوية، تتجلى في اللغة الحاسمة التي تستخدمها العمة (مثل: يدل، حان الأجل)، مقابل اللغة المفتوحة والتخفيفية عند الإمام (مثل: مجرد أضغاث).
 - علامات سردية، تتجلى في بنية الأدوار: فالعمة تمثل نموذج السلطة المغلقة، والإمام يمثل سلطة منفتحة قائمة على التبصير. وهذا يتحقق التوازي بين الشكل والمضمون، بين الوظيفة الدلالية والوظيفة التربوية.
- في المحصلة، فإن قصة "صفاء والحلم" ليست مجرد حكاية طفولية عن حلم، بل هي تمرين تربوي على التفكير والمراجعة، تقترح على الطفل الانتقال من موقف التلقي السلبي إلى موقع الفهم والمساءلة، ومن الخرافة إلى العقل.

2- التحليل السيميائي لقصة "ظل خلف النافذة":

تقدّم قصة "الغول والتيس" بنيةً سردية شديدة الذكاء، تتجاوز التسلية لثارس وظيفة تربوية نقدية عبر آليات سيميائية دقيقة. فهي توظف أسلوب البناء والتفكيك التدريجي للمعنى، حيث يُنتج الخوف تدريجياً داخل المتن الطفولي لا بوصفه واقعاً خارجياً بل نتيجةً للتراكم الرمزي والتصور الذهني.

تنطلق القصة من مشهد أسري دافئ ومألوف، قبل أن تلجأ الأم، وهي تمارس سلطتها التربوية التقليدية، إلى استعمال الخرافة كأداة ضبط وردع، مهددة: "إن لم تنام فسيقتك بكما الغول، فهو قادم بعد قليل ليأكل كل من يراه مستيقظاً..."¹⁶. هذه الجملة ليست بريئة؛ فهي تُنتج «دالاً مركزياً» (الغول) مشحوناً بالخوف، ويمثل هنا ما تسميه

السميائيات بالرمز المنبته إلى الخطر، حيث لا وجود للغول فيزيائياً، لكنه يُستدعى بوصفه صورةً ذهنية تنمو من خلال التخيل.

في هذا السياق، ينخرط الطفل عماد في عملية إنتاج فردي للخرافة، حيث يقول لنفسه: "الغول... عملاق كثيف الشعر... له عينان بارزتان مخيفتان... هل له ذيل؟..."¹⁷. هذا التخيل ليس مجرد تفاعل سلبي، بل يمثل سيورة تركيب دلالي نشط، يستخدم فيها الطفل معجمه الثقافي - من حيوانات مرعبة وظلال، وأصوات الليل، وغياب الأب - ملء فراغ الدالّ «غول» بمدلولات مفزعة.

إنّ التحوّل السميائي الحاسم يقع حين يتقاطع هذا التخيل مع إدراك بصري مباشر؛ فعاد يلح ظلاً خلف النافذة، ويربطه بتصوره عن الغول، ثم يصمت كل شيء إلا وقع الحوافر وثغاء حيوان. يقول النص: "صرخ عماد فانتفضت الأم من فراشها... واكتفى بتوجيه إصبعه نحو التافذة، فالتفتت نحوها لتجد المخلوق الغريب لا يزال ظلّه جامئاً خلفها..."¹⁸. يُصاغ هنا المشهد بوصفه ذروة التوتر السردي، حيث تكتمل صورة الغول وتبلغ أقصى مداها قبل لحظة الانكشاف.

لكن التحوّل الدلالي يتم فجأة على لسان الطفلة رشيدة، التي تقول ضاحكة: "لقد كان هذا الصوت عبارة عن ثغاء"¹⁹. هنا يحدث الانفجار التأويلي؛ إذ تُستبدل دلالة الغول (الخوف) بالتيس (المعروف)، ويتم قلب العلامة رمزياً من الرعب إلى الطرافة. يُفزع الدالّ «غول» من محتواه التهويلي، ويُعاد ملؤه بدالّ مألوف غير مرعب، فتسقط الخرافة أمام سلطة التجربة المباشرة.

هذه البنية السردية تمثل تطبيقاً عملياً لنموذج التحوّل من السلطة الخطائية (الأم/الخرافة) إلى سلطة الإدراك والتجريب (الطفل/التحقق). وبهذا، فإن القصة تُبرز فكرة أن المعنى ليس جاهزاً في الواقع، بل يُنتج داخل الذات بفعل التلقي والتأويل والمواجهة.

من وجهة نظر سيميولوجية، الغول هو دال فارغ حسب تعبير رولان بارت، يتغذى على الثقافة والذاكرة الجماعية، ولا يكتسب دلالاته إلا من خلال السياق الذي يُفعل فيه. أما التيس، فهو المدلول الواقعي الذي يهزم الخرافة بمجرد ظهوره، لأنه يُفكك التمثيل الذهني السابق ويعيد المعنى إلى الأرض.

تربوياً، تكشف القصة عن نموذج فعال في تنمية التفكير النقدي، حيث يتحوّل الخوف إلى أداة للتأمل، ويُصبح الخطاب الخرافي مادة للتفكير. كما أن التحوّل من الرعب إلى الضحك يحمل وظيفة نفسية تربوية عميقة، إذ يعيد تشكيل علاقة الطفل بالرموز المخيفة، ويمنحه سلطة إعادة التسمية بدل الانصياع لها.

ختاماً، القصة لا تُقدّم نهاية أخلاقية جاهزة، بل تجعل الطفل جزءاً من منظومة المعنى، وتُعلمه أن المفاهيم لا تُمنح، بل تُكتسب عبر التجربة والتساؤل والتحقق. وهو درس في تفكيك الخرافة وإعادة بناء الواقع على أساس وعي فردي ناقد، لا على سلطة القول التقليدي.

رابعاً- نحو استراتيجية تربوية لتفعيل التفكير النقدي عبر القصة

تشكل قصتنا "أضغاث أحلام" و"طل خلف التافذة" إطاراً سردياً ملائماً لتفعيل التفكير النقدي داخل العملية التربوية، وذلك لارتكازها على صراع تأويلي يتيح للطفل اختبار الفرضيات بدل التسليم بها؛ ففي القصة الأولى، يُقدّم الحلم بداية في إطار تفسيري مغلق تتبناه العمّة، إذ تصفه بن: "إذا رأى الإنسان في منامه أنه يطير، فهذا يدل على أنّ"

قرب الأجل قد حان²⁰، وهو تأويل خرافي قائم على الحسم والتخويف. لكن الخطاب يتغير لاحقاً على لسان الإمام حين يقول: "إنها أضغاث أحلام"²¹، ليعيد الحلم إلى دلالاته النفسية المفتوحة.

هذه المراوحة بين التأويلين تمثل تمريناً على تعليق الحكم، وتأجيل التصديق، والمقارنة بين القراءات، وهي من صميم مهارات التفكير النقدي.

تمنح هذه القصة الطفل فرصة ممارسة فعل التأويل بنفسه، والتمييز بين خطاب شعبي يقوم على يقينيات خرافية مغلقة، وخطاب عقلائي يفسح المجال لتعدد الدلالات. إنها أشبه بلحظة انبثاق أولي لوعي فردي مستقل، يمتلك الجرأة على مساءلة ما يتلقاه من تفسيرات جاهزة، والانفتاح على إمكانات جديدة أوسع للمعنى.

في المقابل، تعتمد قصة "الغول والتيس" على بنية درامية مختلفة؛ فالخرافة لا تُقدّم مباشرة بل تُبنى عبر الإيحاء. تخوف الأم أنها بقولها إن الغول "يأكل من يبقى مستيقظاً"، وهي عبارة تُرسخ صورة مرعبة في ذهن الطفل. غير أن بطل القصة، عماد، لا يرضى بالتلقي السلبي، بل يقرر أن يتحقق بنفسه، فيرصد الكائن المجهول ويكتشف أنه في الحقيقة مجرد تيس.

يُظهر هذا التحول في بنية السرد قيمة الاعتماد على الملاحظة والتجربة عوضاً عن الخضوع لخطاب التخويف، وهو ما يمهد الطريق لغرس البذور الأولى للتفكير العلمي في وعي الطفل.

من الناحية التربوية، يُظهر هذا التحول من الرعب إلى الضحك -حين تكتشف الأسرة أن "الغول" ليس سوى تيس نثي خارج النافذة- أن القصة قادرة على تحرير الطفل من سلطة التهويل، وتحويل الخوف إلى تأمل ساخر، والصورة المشوهة إلى رمز قابل للتفكيك. فهذا، تصبح القصة وسيلة لتحويل الطاقة الانفعالية إلى رصيد معرفي، ولترقية العاطفة إلى مستوى الوعي النقدي القادر على الفهم والمساءلة.

استناداً إلى هذه القراءتين، يمكن اقتراح استراتيجيات تربوية فعالة في التعامل مع النصوص القصصية الموجهة للطفل، منها:

- مطالبة الطفل بإعادة تأويل القصة من وجهة نظر مغايرة.
- طرح أسئلة مفتوحة مثل: "ماذا لو لم تذهب صفاء إلى العمه؟" أو "كيف كان يمكن لعماد أن يتصرف بطريقة مختلفة؟".
- تمثيل القصة مسرحياً، مع اعتداد وجهات نظر متعددة للشخصيات.

كل هذه الممارسات تُحيل النص القصصي من أداة تلقين إلى مختبر للشك والتأمل، وهو ما يحقق جوهر التربية النقدية في أدب الأطفال.

خاتمة

تعدّ قصص الأطفال أحد أهم الوسائط الأدبية والتربوية التي تُسهم في تشكيل وعي الناشئة، إذ تتجاوز أبعادها الوظيفية التسلية والمتعة إلى غرس القيم، وتكوين الاتجاهات، وتطوير التفكير. وتبرز أهمية هذه الدراسة في ارتباطها بموضوع بالغ الحساسية، وهو حضور الخرافة في المتن السردي الموجه للطفل، وما يترتب عنها من آثار معرفية ونفسية قد تعوق نشوء الوعي النقدي المبكر.

انطلاقاً من التحليل الـسيميائي-التربوي لقصة "أضغاث أحلام" وقصة "ظل خلف النافذة"، توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج المهمة:

- هيمنة الخطاب الخرافي على البناء الحكائي لكثير من قصص الأطفال، خاصة تلك المتأثرة بالوعي الشعبي غير المصقّى، ما يعزز لدى الطفل تصورات غيبية قد تتركس الخوف والارتباك للتفسير الغامض والميتافيزيقي.
- تؤكد القصتان موضوع الدراسة أن الخطاب التربوي غير الرشيد - كتحذير الأطفال من الغول، أو تفسير الأحلام بشكل مروع - قد يحدث خللاً نفسياً لدى الطفل، ويؤثر سلباً في توازنه العاطفي والإدراكي.
- تقترح النهايتان في القصتين نموذجاً من التفكير العقلاني والتأويلي المفتوح، حيث يتم تفكيك الرؤية الخرافية لصالح التأويل العلمي أو الواقعي (الإمام في القصة الأولى، واكتشاف التيس في الثانية)، وهو ما يعزز تنمية التفكير النقدي لدى الطفل.
- تبرز أهمية السياق العائلي والتربوي في ترسيخ أو مقاومة الخرافة، فكلما كان الراشدون أكثر وعياً وهدوءاً في معالجة الأسئلة الوجودية والمخاوف الطفولية، زاد احتمال إنتاج وعي عقلائي لدى الطفل.
- إن التخيل السردي في القصة يمكن أن يكون رافعة تربوية حين يُوظّف في بناء رموز تؤسس للشكّ المنهجي، بدلاً من التسليم الساذج، وتدفع الطفل إلى البحث والفهم والتحليل.

هوامش:

- 1- روبرت إيه سيغال، 2014، الخرافة، ترجمة: محمد سعد طنطاوي، ط1، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص15
- 2- المرجع نفسه، ص15
- 3- أحمد علي مرسي، 2003، الإنسان والخرافة - الخرافة في حياتنا، مصر، مكتبة المهتمدين الإسلامية، ص62
- 4- المرجع نفسه، ص62-63
- 5- جوناثان هابر، 2017، التفكير النقدي، ترجمة: إبراهيم سند أحمد، مؤسسة هنداوي، ص76
- 6- المرجع نفسه، ص76
- 7- المرجع نفسه، ص78
- 8- تريسبي بويل، جاري كيب، 2015، التفكير النقدي - دليل مختصر، ترجمة: عصام زكريا جميل، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ص24-25
- 9- حسن شحاتة، 1994، أدب الطفل العربي: دراسات وبحوث، ط2، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ص11
- 10- المرجع نفسه، ص12
- 11- سعاد سعدي، الطفل والتراث الشعبي - الحكاية الشعبية أمودجا، (2016)، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، المجلد 6، العدد 1، ص212
- 12- خير الله عصار، 1982، مقدمة علم النفس الأدبي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص38
- 13- فوزية بنت عبد الرحمان با ناعمة، 1439هـ، مادة علم نفس النمو، الكلية الجامعية بمحافظة الليث، ص103

- 14- جمال ولد الخليل، التحليل السيميائي للنص الأدبي - نموذج تطبيقي، جوان (2016)، مجلة دراسات، جامعة طاهري محمد بشار، المجلد 5، العدد 1، ص 39
- 15- فاتح عياد، 2021، رسالة إنسان: قصص وعبر، ط1، برج بوعريش-الجزائر، دار خيال للنشر والترجمة، ص 8.
- 16- المصدر نفسه، ص 25.
- 17- المصدر نفسه، ص 25.
- 18- المصدر نفسه، ص 26.
- 19- المصدر نفسه، ص 27.
- 20- المصدر نفسه، ص 8.
- 21- المصدر نفسه، ص 9.

قائمة المراجع:

الكتب العربية:

- 1- أحمد علي مرسي، 2003، الإنسان والخرافة - الخرافة في حياتنا، مصر، مكتبة المهتمدين الإسلامية.
- 2- حسن شحاتة، 1994، أدب الطفل العربي: دراسات وبحوث، ط2، القاهرة، النور المصرية اللبنانية.
- 3- خير الله عصار، 1982، مقدمة لعلم النفس الأدبي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 4- فاتح عياد، 2021، رسالة إنسان: قصص وعبر، ط1، برج بوعريش-الجزائر، دار خيال للنشر والترجمة.
- 5- فوزية بنت عبد الرحمان با ناعمة، 1439هـ، مادة علم نفس النمو، الكلية الجامعية بمحافظة الليث.

الكتب المترجمة:

- 1- تريسي بويل، جاري كيب، 2015، التفكير النقدي - دليل مختصر، ترجمة: عصام زكريا جميل، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة.
- 2- جوناثان هابر، 2017، التفكير النقدي، ترجمة: إبراهيم سند أحمد، مؤسسة هنداوي.
- 3- روبرت إيه سيجال، 2014، الخرافة، ترجمة: محمد سعد طنطاوي، ط1، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

المجلات:

- 1- جمال ولد الخليل، التحليل السيميائي للنص الأدبي - نموذج تطبيقي، (2016)، مجلة دراسات، جامعة طاهري محمد بشار، المجلد 5، العدد 1، ص 38-52
- 2- سعاد سعدي، الطفل والتراث الشعبي - الحكاية الشعبية أنموذجا، (2016)، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، المجلد 6، العدد 10، ص 211-222